التراث النقدي والبلاغي في ضوء مناهج التحليل

الدكتور : حسين أحمد حسين كتانة
قسم الآداب و اللغة العربية
جامعة آل البيت-الأردن-

ملخص:

يعتبر المشروع النقدي للعلامة أحمد الطرابلسي أحد أبرز و أهم المشاريع العلمية التي توسلت برؤية منهجية دقيقة و عميقة في مراقبة المنجزات النظرية والمنهجية للنقاد العرب القدامى، ويلاحظ القارئ لكتابه " نقد الشعر عند العرب " أن تميزه عن غيره من المؤلفات المتزامنة معه والمعاصرة له يعود إلى توسل صاحبه بالمنهج الحفري المندمج ، و أن هذا المنهج مكنه من الكشف عن مسارات تشكل النقد العربي وتطوره ، و إبراز مسافات اشتغال مفاهيمه وتداول أحكامه وتصوراته، دون تعصب للتراث أو تنقيص منه .

Abstract:

The scholar Amjad At-Trabulsy criticism project is deemed one of the most accurate.in-depth . and methodologically sound projects in the field . particulary in setting the pillars of the the theoretical and methodological finding of the ancient Arab critics .Reading At-Tarabulsy's The Criticism of Poetry according to the Arabs .one can detect its distinction from the many published critical treaties of its time. A distinction attributed to At-Tarabulsy recruitment of an excavation method of critical inquiry.This methodology enabled him uncover the tracks of the development of Arabic literary criticism and objectively underline the visions adopted and the domains trageted by such criticism . without any bias for or against tradition.

ظل التراث الأدبي والنقدي عند العرب يثير لدى الباحثين العديد من الأسئلة والإشكالات التي تهم طرق مقاربته والتعامل معه، في ضوء التحولات النظرية والمنهجية المتلاحقة و المتسارعة التي تعرفها العلوم والمناهج النقدية، وبسبب توالي ظهور العديد من المصنفات التي كانت في حكم المفقود أو المجهول.

ذلك أنه كلما تطور أو ظهر اتجاه أدبي جديد أو نظرية نقدية مغايرة في تحليل الخطاب إلا ووجد الباحثون بعض نقط التقاطع والتشابه بينهما وبين ما سطره البلاغيون والنقاد من أحكام وتصورات، أو ما عبر عنه الشعراء من رؤى جمالية، فكان ذلك سببا في إعادة طرح قضية "قراءة التراث" وفي التفكير في كيفية التعامل مع إنجازاته "القديمة" التي تتطابق في كثير من جوانبها مع أحد ما توصلت إليه العلوم الأدبية واللسانية والنقدية الحديثة، فكان السؤال الدائم: هل نقرأ تراثنا بآليات نظرية ومناهج تحليلية حديثة مستمدة من المعارف الغربية المعاصرة؟ أم نقرؤه في ذاته، وبمعزل عن التصورات والمناهج الحديثة؟ أم هل ينبغي أن نبلور تصورا منهجيا مغايرا لا يتماهى مع النظريات والمناهج الحديثة، ويعمد إلى إسقاطها على المنجزات العلمية العربية القديمة، ولا يتغاضى في الوقت نفسه عنها، فيتجاهلها فيحتمي بالتراث مكتفيا به وحده وغير مكترث بما سواه؟

وإذا كانت هذه الأسئلة تقتضي اتخاذ موقف واضح من مسألة تقاطع المنجز التراثي مع المنجزات العلمية الحديثة، فقد كان يتطلب أيضا صياغة رؤية منهجية في طرق دراسة التراث وتأويله بآليات غربية، بل إن الأمر لم يقف عند هذا الحد بحيث أدى إلى استحضار الذات في علاقتها بالآخر

مجسدا باليونان قديما والغرب حديثا الذي ما فتئ يغزونا بعدد هائل من النظريات والمناهج المهتمة بتحليل الخطاب، كما استدعى أيضا –وبإلحاح– التساؤل من جديد عن ماهية التراث وحدوده والموقف منه، ليس بوصفه معطى متعددا ومتنوعا فحسب، بل وبوصفه ــ أيضاــ مكونا جوهريا لهويتنا ومؤثرا فيها، وعينا ذلك أم لم نع.

و يعد **الأستاذ أمجد الطرابلسي** من أوائل الباحثين المعاصرين الــذين بلوروا رؤية منهجية دقيقة في قراءة التراث النقدي والبلاغــي تســتند إلــى منطلقات نظرية وآليات تحليلية لا تمجد التراث وتحتمي به، كما لا تدعو إلى تجاوزه والقطع معه، بل تؤسس لمقاربة تأصيلية للتراث، تنطلق من مواكبة علوم العصر واستيعاب معارفه، وتنظر في منجزات العرب القدامى لفهمهــا في سياقها التاريخي والمعرفي بغاية ربطها ربطا تفاعليا – وليس تلفيقيا– مع التصورات الحديثة والمعاصرة .

ويعد كتابه: "نقد الشعر عند العرب حتى القرن الخامس للهجرة" اللبنة الأولى التي أرسى فيها أسس هذا التصور وقدمه، وذلك حــين قدمــه فــي الثلاثينيات من القرن الماضي لنيل درجة الدكتوراه من جامعــة الســوربون بباريس.

بيد أن قيمة الكتاب تتجاوز الإطار الأكاديمي الذي أنجز فيه، وتتصــل بطبيعة القضايا والتصورات التي استعرضها فيه، كما تلامس نوعية البنــاء المنهجي الذي صاغها فيه. ولعل ذلك ما جعل كثيرا من الباحثين يلحون عليه باستمرار –وعلى امتداد أزيد من ثلاثة عقود– بأن يسمح لهم بترجمته إلــى اللغة العربية، فكان يتردد باستمرار في الاستجابة لطلبهم، وهو تردد يعــود إلى حيرة في اختيار الطريقة المناسبة لنقل مضامينه إلى العربيــة؛ إذ كــان

يتساءل: هل يترجمه كما هو؟ أو يعيد تأليفه في ضوء ما استجد من تصورات نظرية ومنهجية، وما تم العثور عليه من مصادر وبحوث كانت في حكم المفقود، بل والمجهول أيضا؟[1]

ولئن كان رأي **د. أمجد الطرابلسي** قد استقر في النهاية على الاختيار الأول؛ أي أن ينقل كتابه إلى العربية بالصورة التي كتب بها أول مرة، فلأنه اقتنع من كثرة إلحاح الباحثين على السماح لهم بترجمة كتابه، ولأنه تيقن بعد طول تأمل ومراجعة ما كتبه غيره في الموضوع نفسه من أن الأحكام والتصورات التي تضمنها كتابه لم تفقد راهنيتها.

والسؤال الذي يطرح نفسه بهذا الخصوص: لماذا لم تفقد أطروحة **د. أمجد الطرابلسي** راهنيتها؟ و لماذا لم تتحول ــ كما هو شأن كثير من الدراسات المماثلة ــ إلى وثيقة تاريخية تمثل البدايات الأولى لقراءة التراث التي تميزت بردود الأفعال السلبية، بل صارت مصدرا رئيسا من مصادر التأريخ للنقد الأدبي عند العرب ؟

لا شك في أن السبب في ذلك يعود إلى المرتكزات النظرية والمنهجية التي اعتمدها في عرض قضايا النقد القديم و تحليلها، والتي تروم البحث عن مفاهيم ونظريات عربية صميمة في نقد الشعر"[2] استنادا إلى «منهج حفري ومندمج» [3].

فأ**مجد الطرابلسي** حرص منذ البداية على أن تكون قراءته "التراث البلاغي والنقدي عند العرب" مستمدة من بنية هذا التراث وموافقة لخصوصيته الفكرية و الجمالية. ولذلك فقد ركز في البداية على كشف الإرهاصات الأولى الدالة على بداية تشكل الوعي النقدي عند العرب خلال الجاهلية والقرنين الأول والثاني للإسلام، فتتبع الآراء و النقدات الشفوية التي

سادت في أوساط الشعراء والعلماء الرواة، وأبرز طبيعة الرؤى الجمالية والمحددات الذوقية التي تحكمت في عملية جمع الدواوين والمختارات الشعرية، ثم حدد بعد ذلك « البناء النظري الذي انتظم في إطاره النقد العربي القديم (...) وقد سعى من خلاله إلى فهم هذا النقد ووصفه و تقويمه بدءا بمكونه التصوري للشعر والشاعر وانتهاء إلى فهمه لموضوع الشعر أو المضمون»[4].

1) طبيعة المنهج و محددات القراءة:

ليس المنهج مجرد أداة إجرائية يدرس بها الباحث بشكل محايد قضايا التراث وإشكالاته، ولكنه طريقة في العرض والتحليل لا تخلو من تأويل. والباحث العربي الذي يقرأ تراثه لا يمكن أن يتخلص – مهما ادعى ذلك وحاول إقناعنا به– من مواقفه الفكرية و قناعاته الأيديولوجية.

وقد كان منهج "**أمجد الطرابلسي**" في قراءة التراث النقدي والبلاغي عند العرب مشبعا بعمق الانتماء القومي و الاعتزاز الوطني بالتراث؛ لأن التراث في تصوره عنصر رئيس من عناصر الهوية العربية الإسلامية، ويعد مكونا ثقافيا راسخا في الوعي الجماعي لحضارة ضاربة في عمق التاريخ وممتدة على تضاريس الجغرافيا. ولما كان فقدان الذاكرة يعني تحول الذات إلى كائن سلبي ينفعل بالأشياء والأحداث دون أن يفعل فيها أو يتفاعل معها، فقد كان الموقف من التراث تعبيرا عن موقف الإنسان العربي من كينونته، وعن الدور الحضاري الذي يمكن أن يضطلع به هنا، والآن في زمن الانسلاخ من كل القيم الأصيلة والتبرؤ منها.

لقد طرح " **أمجد الطرابلسي**" سؤال التراث في لحظة ثقافية خاصة ودقيقة اتسمت أساسا بسيادة النزعات الاستشراقية وهيمنة طروحاتها التي

كانت تمجد « أسطورة النهر الخالد الذي ينبع من أثينا، ويمر من روما ليصل إلى البلاد الأوربية»[5]، و التي كانت ترى أن كل المظاهر الثقافية والأنشطة العلمية والفكرية للثقافة العربية الإسلامية لا تعدو أن تكون "نسخة كاربونية" للأصل اليوناني[6]. وفي مقابل هذا الموقف الذي تبناه المستشرقون ذوو الخلفيات الإمبريالية وكثير من الدارسين العرب الذين تمثلوا روح الاستشراق و تشبعوا بها ورفعوا شعارا ليبراليا يقضي بالتخلص من التراث، ساد موقف آخر يحتمي بالتراث ويقرؤه قراءة غير علمية وغير تاريخية أيضا؛ فهي غير علمية لأنها تتبنى على ردود الأفعال السلبية، وتشتغل عليه لا بغاية تمثل تصوراته وأفكاره في عمقها المعرفي وسياقها الثقافي، وإنما بغاية الرد على مزاعم المتشككين وأباطيلهم؛ وهي غير تاريخية لأنها تعتقد أنه من الممكن قراءة التراث خارج الشروط الموضوعية والأسئلة المعرفية التي تشكل على أساسها، ولأنها أيضا تتوهم أنه بإمكانها التحرر من الموجهات والمؤثرات الذاتية والموضوعية التي تتحكم في فعل القراءة، وأن تعود إلى الماضي فتنجز قراءة علمية محايدة لهذا التراث.

وفي خضم الجدل القائم بين هذين الموقفين المتضاربين طرح " **أمجد الطرابلسي**" سؤال التراث، وقد كان يعي أن المقاربة العلمية للقضايا والإشكالات التي ينطوي عليها تقتضي في البداية تمثله والإلمام بمجمل العناصر والأجزاء التي تحدد كينونته النصية والمعرفية، وتتطلب من ثم « كتابة تاريخ الأدب العربي»[7]. وهذا أمر صعب جدا وكان يتلمس في النصف الأول من القرن العشرين بداية الطريق، كما كان يستكشف ــ كما يعبر بنفسه ــ عن ذلك « أرضا ما تزال مجهولة»[8]. فكثير من المظان والمصنفات المؤسسة لنقد الشعر عند العرب لم تظهر بعد، وتلك الموجودة

بين يدي القراء ليست محققة تحقيقا علميا، بل إن بعضها منسوب خطأ إلى غير مصنفيها، وكل ذلك يجعل الحسم في العديد من القضايا الشائكة والإجابة عن الكثير من الأسئلة الغامضة صعب المنال.

ومن هذه الزاوية فقد كان مشروع **د. أمجد الطرابلسي** في بداية مسيرته العلمية طموحا ومزدوجا؛ فإلى جانب مطلب رصد كيفيات تبلور المفاهيم النقدية عند العرب ونشأتها، وكشفه عن المجالات المعرفية الأولى التي استعملت فيها، وتتبعه أشكال تطورها وانتقالها من بيئة معرفية إلى أخرى كان عليه أن يكتب تاريخا للنقد الأدبي عند العرب. وهذا فعلا ما قام به بتفوق كبير؛ إذ تمثل دراسته نقد الشعر عند العرب « أول جهد جدي في بابها. و يكفي صاحبها فضلا أنه كان أول من وجه الانتباه نحو موضوع ذي أهمية جوهرية لكتابة تاريخ الأدب العربي» [9].

أما بالنسبة إلى طبيعة الموقف الذي تبناه في سياق الإجابة عن سؤال التراث فقد كان موقفا مختلفا عن الموقفين السابقين، بل وفريدا في بابه؛ لأنه يرى أن عملية قراءة التراث البلاغي والنقدي عند العرب ينبغي أن تحصل شرطين رئيسين بدونهما تستحيل أن تكون علمية ودقيقة: فأما الشرط الأول فعلى الباحث أن يكون متشبعا بثقافته التراثية وملما بدقائق أحكامها وتصوراتها، وأن تكون علاقته بالتراث ليس مجرد علاقة الباحث بموضوعه، بل علاقة الإنسان بعنوان هويته؛ وأما الشرط الثاني فيتمثل في ضرورة أن يكون مستوعبا علوم عصره ومفاهيمها ومواكبا مستجداتها النظرية والمنهجية. يقول موضحا ذلك: « يشترط في من يريد إتباع هذه المناهج المعاصرة وقراءة التراث في ضوئها أن يكون مزودا بما لا بد منه للقيام بهذه المهمة الشاقة التي تتطلب منه أن يكون كامل الأداة: أي أن يكون من جهة

متمكنا من ثقافاته التراثية، وأن يكون من جهة ثانية مطلعا بوضوح ودقة واستنارة على معطيات المناهج المعاصرة وقادرا على استعمال مصطلحاتها في مواضعها»[10].

وما يقوله الباحث هنا مهم جدا، ليس فقط لأنه يجلي بوضوح موقفه الفكري المنفتح على ثقافة الآخر والمتفاعل معها، بل لأنه يكشف أيضا عن عمق أصالته ومدى تشبعه بالثقافة التراثية.

ذلك أن هذا الموقف الذي يعبر عنه في تقديمه كتاب الأستاذ إدريس بلمليح: الرؤية البيانية عند الجاحظ يتقاطع في العمق مع تصور الجاحظ (ت255 هـ) للموقف الذي ينبغي أن يحكم تفاعل علماء عصره الذين ينشغلون بنقل كتب الأمم الأخرى، إلى العربية. ونعني بذلك قوله : « لا بد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة، في وزن علمه في نفس المعرفة، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها، حتى يكون فيها سواء و غاية »[11].

فما يقوله الجاحظ في هذا النص لا يختلف من حيث المقاصد العامة التي تحكم القراءة التفاعلية بين الذات والآخر سواء كانت ترجمة أم دراسة عما قرره لاحقا "**أمجد الطرابلسي**" في النص سالف الذكر.

وتكمن قيمة هذه الملاحظة في أنها تمكن من تسجيل أمر مهم مؤداه: إن الجهاز النقدي الذي كان يحلل في ضوئه قضايا النقد والبلاغة العربية كان مستمدا من المواقف الفكرية والآليات التحليلية التي أنتجها القدامى وحكمت تفاعلهم مع قضايا الشعر والشعرية. ومسوغ هذا الأمر في تصوره ـ يعود إلى أن قراءة النتاجات الأدبية العربية القديمة لا يكفي لكي تكون علمية أن تلتزم بالمقتضيات النظرية والخطوات التحليلية للمناهج التي يتوسل بها

الباحث في عملية القراءة بطريقة صارمة و حرفية، بل لا بد أن تتحصل لديه ــ إلى جانب « محبته للتراث العربي واعتزازه به» [12]، وتضلعه في العربية وأساليبها ــ ملكة يدرك بها جمالية البيان بالوجدان قبل المنطق والعقل كما يؤكد ذلك في الكلمة التي صدّر بها كتاب البحوث الإعجازية والنقد الأدبي للأستاذ: عباس أرحيلة[13].

و يعد هذا الشرط الذي يضعه " **أمجد الطرابلسي**" لقراءة التراث النقدي والبلاغي مهما جدا، لأن بتحققه يستطيع الباحث أن يدرك كثيرا من المعطيات الفكرية والخصائص الجمالية للنصوص المقروءة، التي يصعب تمثلها وتذوقها في غير لغتها الأصل وبمعزل عن البنية الذهنية والسياقات الثقافية والاجتماعية التي أنتجت في إطارها.

ولئن كان هذا الأمر ينطبق على الشعر العربي القديم بحكم أنه « يتصف بصفات تكاد تكون خاصة به، وأنه من العسير تذوقه أو تقويمه مترجما إلى لغة أخرى» [14]، فإنه ينسحب أيضا على المفاهيم النقدية عند العرب التي ارتبط نشوؤها ببداية وعي القدامى ببعض الخصائص الفنية والمميزات الأدبية للعملية الشعرية منذ بداية تأسيس العلوم العربية.

2) مفاهيم التراث النقدي: نشأتها وتطورها:

يتمثل المدخل المنهجي المناسب لدراسة التراث النقدي عند العرب في تصور " **أمجد الطرابلسي**" في « استيعاب المفاهيم الشعرية لدى النقاد العرب القدماء، وتتبع تطور هذه المفاهيم في تفصيلها»، وذلك خلال « الحقبة الممتدة من أواخر القرن الهجري الثالث (التاسع للميلاد) إلى ظهور ابن رشيق المتوفى سنة 436 هـ»[15].

وتكمن أهمية هذا المسلك الذي اتبعه " **أمجد الطرابلسي**" في كونه ينم عن وعي نظري مبكر بقيمة البحث في المفاهيم بوصفها مفاتيح العلوم وعلامات مختصرة للتصورات النظرية التي تنطوي عليها ودالة على قيمتها الإجرائية. فالمدخل لقراءة التراث النقدي والبلاغي عند العرب ولفهم تصوراته وتقويم منجزاته من خلال مختلف مراحل تشكلها وتطورها يجب أن يبدأ – ضرورة– من اللحظات المبكرة لنشأة نقد الشعر عند العرب، والتي تمتد على طول القرون الثلاثة الأولى للهجرة.

فقد لف الغموض هذه الفترة وتضاربت آراء الباحثين بخصوص قيمتها العلمية ودورها في سيرورة التفكير النقدي عند العرب، فرأى بعضهم أنها تؤرخ لطفولة النقد العربي التي ضاعت كما ضاعت طفولة الشعر الجاهلي[16]، ورأى آخرون أنها تمثل مرحلة الانطباعية في تاريخ النقد العربي، وأن الأحكام والتصورات التي تنطوي عليها تأتي دائما غير معللة، ولذلك فهي غير ذات قيمة ولا أهمية**!**[17]

وتتميز مقاربة " **أمجد الطرابلسي**" لهذه الفترة من تاريخ نقد الشعر أول المرحلة عند العرب بعمق النظر ودقة التأويل، إذ إنه لا يسلم بكل الآراء والنقود المنسوبة إلى هذه اللحظة، كما أنه لا يرفضها جملة وتفصيلا، ولكنه يتأملها ويفحصها بالصورة التي تسمح له بالتمييز "بين الصحيح منها والمزيف"[18]، وبالكشف عن الملامح العامة والإرهاصات الأولى الدالة على بداية تشكل التفكير النقدي عند العرب.

وهو إلى جانب هذا وذاك يؤكد أن أهمية الآراء والأحكام التي تنسب إلى ما سمي مرحلة النقد الشفوي تكمن في أنها تمثل – بالرغم مما توسم به من انطباعية وتجزيئية – مرجعا نظريا رئيسا لمرحلة النقد المدون؛ إذ

سيوظف النقاد اللاحقون تلك الآراء والأحكام الشفوية لدعم تصوراتهم وتأكيدها. يقول بهذا الصدد: « لقد ورث النقد المدون عن العصر الجاهلي وعن القرنين الأولين للإسلام كل هذا التراث الشفوي الغزير الواعد والبسيط الساذج. وهو إرث سيحافظ عليه ورثته المباشرون أشد المحافظة وسيحترمونه ويؤمنون به ويقدسونه، وقليلا ما يعارضونه؛ وسيحرصون على أن يحلوا بشواهده مؤلفاتهم النقدية» [19].

ويدل هذا الموقف الذي اتخذه الباحث من الطور الشفوي عند العرب في مستهل دراسته دلالة واضحة على أن قراءته التراث لا تسقط عليه التصورات والأحكام الجاهزة، بل إنه يقرؤه من داخله ويستكشف منطقه الثقافي الخاص. ولذلك فهو يعد أن النقود الشفوية التي تواترت على ألسنة النقاد الشعراء والعلماء والرواة واللغويين هي جزء لا يتجزأ من هوية التراث النقدي، ومن ثم لا يمكن لأي حديث عن هذا التراث أن يكون كاملا ودقيقا بدونها.

ومن اللافت أن هذا الموقف الذي تبناه الباحث أي صاحب المصنف يتماثل مع موقف أحد قمم النقد العربي القديم: وهو أبو الحسن حازم القرطاجني (ت 684 هـ) الذي يقول بخصوص الآراء والأحكام التي كان يتداولها العلماء واللغويون والشعراء في أنديتهم: « (...) وقد نقل الرواة من ذلك الشيء الكثير لكنه مفرق في الكتب، لو تتبعه متتبع متمكن من الكتب الواقع فيها ذلك لاستخرج منه علما كثيرا موافقا للقوانين التي وضعها البلغاء في هذه الصناعة» [20].

يميز "**حازم القرطاجني**" في هذا النص بين ثلاثة مستويات لتلقي التراث الشعري ولصياغة التصورات المتعلقة بخصائصه الفنية ووظائفه

الجمالية لكل واحد منها زمنه الثقافي الخاص به: فأما المستوى الأول فيتحدد في رواية الأشعار والمواقف الانطباعية المتصلة بزمن إنشادها، ويشمل هذا المستوى حقبة العصر الجاهلي والقرنيين الهجريين الأول والثاني. وأما المستوى الثاني فيتحدد في لحظة صياغة تصورات نظرية محددة ومعللة، وتبدأ هذه الفترة مع إحساس القدامى بالحاجة إلى العلماء المتخصصين في نقد الشعر[21]. أما المستوى الثالث فيتمثل في لحظة استقراء القوانين البلاغية وتأملها وإعادة بنائها على أسس نسقية. ولعل حازما يقصد بهذا المستوى مرحلة شيوع المنطق في الدراسات البلاغية لدى المتأخرين.

ولئن كان ما يشير إليه "**حازم القرطاجني**" في النص الأخير يؤكد صواب تصور "**أمجد الطرابلسي**" أهمية مرحلة النقد الشفوي في التراث العربي، فإنه يؤكد كذلك قولنا السابق بخصوص تشبعه بهذا التراث وتحليله قضاياه وإشكالاته في ضوء آلياته وتصورات علمائه المتخصصين. وليس من الضروري أن يكون قد اطلع على نص "**حازم القرطاجني**" ليصوغ تصوره بخصوص هذه المسألة فمن المعلوم أن كتاب "**حازم**" لم يظهر إلا بعد عقدين من إنجاز **الطرابلسي** أطروحته، ولكنه تمثل النسق الذي يحكم التراث النقدي ويوجه وعي القدامى النظري بالقضايا والإشكالات التي تطرحها العملية الشعرية وطرائق انعكاس ذلك على معالجتهم ومقاربتهم لهذه الإشكالات.

إن الطبيعة الشفوية للآراء والأحكام النقدية خلال العصر الجاهلي والقرنين الأولين للهجرة كانت تجعلها غير واضحة وتفتقر إلى رؤية منهجية متناسقة. وقد كان نضج الوعي النقدي عند العرب وتطوره يقتضي التخلص من ردود الأفعال الانطباعية التي ترتبط بلحظة قول الشعر والانتقال إلى

سياق آخر تكون فيه صياغة موقف معين وليدة تأمل طويل وتحليل عميق. ولم يكن هذا الأمر ممكنا إلا في ضوء شيوع عملية الكتابة وتحولها إلى سلوك حضاري ونشاط ثقافي يندرجان ضمن حركة علمية واسعة؛ لأن« الكتاب لا محالة يجعل التفكير رصينا، في حين أن التلقين الشفوي حائر ومفتقر إلى التناسق، ومعناه أن المنهج سيتغلب شيئا فشيئا على الاضطراب والإهمال. وهكذا نجد أنفسنا، منذ القرن الثالث الهجري، إزاء أعمال متقنة في مجملها، تخضع لتصميم محكم وتصاغ بدقة. وهو ما ييسر مهمة المؤرخ، إذ يزوده بوثائق صحيحة، ويمكنه من استنباط نتائجه، بالاستناد إلى حجج صلبة ومتماسكة»[22].

ويرى " **أمجد الطرابلسي**" أن تحول النقد الشعري من شكله الشفوي إلى الشكل المدون يعود بالدرجة الأولى إلى عاملين رئيسين أولهما: تدوين الشعر العربي؛ وثانيهما: نشوء علوم اللغة وازدهارها. وهذا ما يشير إليه بقوله: « إنه لا يمكن أن يوجد نقد شعري ما، وجودا حقيقيا، قبل أن تكون المواد التي يجب أن تسعفه في مجال البحث قد تحددت. ربما يكون الحكم على شاعر معين من خلال بيت واحد كافيا لإرضاء فضول علمي في مرحلة النشوء، ولكنه غير كاف إطلاقا بالنسبة لنقد رصين يجب بادئ ذي بدء أن يدرس إنتاج الشاعر برمته. ولذلك فإن العلماء الرواة، حين أذاعوا في الناس ما استطاعوا إنقاذه من الآثار القديمة، قد يسروا فيما بعد مهمة النقاد. وهو ما شكل النتيجة غير المباشرة لجهودهم. لكن النتيجة المباشرة لهذه الجهود تمثلت في تنشيط النقد اللغوي. وذلك لأن الاندفاع إلى جمع الشعر صادف منذ القرن الثاني للهجرة اندفاعا مماثلا في مجال علوم اللغة، فكان الشعر القديم من جهة، يمنح اللغويين النصوص التي لا يمكن الاستغناء عنها في

أعمالهم؛ وفي الشواهد التي تعتبر – بأعدادها الكبيرة – حجة في النحو واللغة مثال دال على هذا التآزر»[23].

ويلاحظ **د. أمجد الطرابلسي** أن المنحى اللغوي الذي اتخذه النقد الأدبي عند العرب خلال القرنين الأولين للهجرة ظل يؤثر على صياغة المفاهيم النقدية ويؤطر التفكير النقدي عند العرب إلى حدود القرن الثالث للهجرة. ولذلك فهو يرى " أن النقد العربي يعد ابنا شرعيا لعلوم اللغة"[24] ومما يؤكد هذا الحكم أن أقدم نصين نقديين نمتلكهما هما من وضع لغويين معروفين ونعني بهما كتابي: فحولة الشعراء للأصمعي (ت 216 هـ) وطبقات الشعراء لابن سلام (ت 231 هـ).

إن تركيز "**أمجد الطرابلسي**" على تحديد الأصول المعرفية التي أثرت في تأسيس النقد العربي أمر مهم جدا؛ لأنه، ــ وفضلا عن أنه سيمكن من رسم صورة واضحة عن الملامح النظرية التي وسمت المصطلحات النقدية الأولى، سيفيد لاحقا في تتبع التطور النظري والإجرائي لتلك المصطلحات ــ سيمكن من معرفة طبيعة التحولات التي طرأت على التفكير النقدي عند العرب من خلال سيرورته التاريخية. وهذه مسألة أساسية بالنسبة إلى المؤرخ الأدبي؛ لأنها ستمكن من الجواب عن التساؤل الآتي: هل تطور النقد العربي نتيجة وعي نظري من صميم الثقافة العربية الإسلامية؟ أم بفعل تأثره بالثقافات الوافدة؟

3) الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة: تجلياته وحدوده:

لقد كان للبحث في مدى حضور الآخر وإسهامه في نشأة العلوم والمعارف العربية القديمة من الإشكالات الكبرى التي شغلت الدارسين العرب والمستشرقين. وهو يتعلق بالنسبة إلى الموضوع هذا البحث بالنظر في طبيعة

التأثير الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين وحدوده. وهي قضية ظهرت بصورة قوية منذ الثلاثينيات من القرن الماضي، وازدادت حدة في الطرح والإدعاء خلال الأربعينيات، إلا أن النصوص المتوافرة خلال تلك المرحلة لم تكن تسمح بتقديم حكم علمي حاسم ومقنع بخصوصها، بحيث لم تظهر آنئذ الترجمة العربية القديمة لكتاب الخطابة، كما لم تظهر كذلك المؤلفات البلاغية التي قامت باستثمار مقولات كتاب الشعر ونعني بها كتاب المطرف بن عميرة (ت 658 هـ) التنبيهات على ما في التبيان من التمويهات، وكتاب حازم القرطاجني (ت 684 هـ): منهاج البلغاء وسراج الأدباء، وكتاب ابن البناء المراكشي (ت721 هـ): الروض المريع في صناعة البديع، ثم كتاب القاسم السجلماسي (ت حوالي 730 هـ): المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع.

ولذلك فجل المواقف من قضية الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين كانت وقتئذ تتراوح بين الاعتقادات والظنون المبنية على المقارنات السطحية بين بعض العناصر المتشابهة في النقد العربي وكتاب أرسطو (ت 322 ق.م) في الشعر والخطابة.

ويلاحظ المتابع لمقاربة **د. أمجد الطرابلسي** لهذه القضية أنها تميزت – مقارنة بغيره من الدارسين المعاصرين له– بالهدوء في عرض إشكالاتها وبعمق تحليلها، إذ لم يسارع إلى نفي الأثر أو إلى تأكيده، بل وقف أولا عند الترجمة العربية القديمة لكتاب الشعر وقابلها بالأصل اليوناني، ولاحظ أن متى بن يونس القنائي (ت328هـ) لم يدرك مفاهيم الشعرية الأرسطية إلا بشكل مشوه « فقد ترجم كلمة "التراجيديا" بكلمة "مديح" وكلمة "كوميديا" بكلمة "هجاء"(...) فمن الانحراف عن جادة الصواب أن نطلب من قراء الترجمة

العربية لكتاب الشعر فهم شيء آخر غير الدلالة الشائعة لهذين المصطلحين. بل لعل المترجم نفسه لم يفهم شيئا آخر غير هذا المعنى الشائع أيضا »[25]. أما بالنسبة إلى أسلوبها فهو « سقيم وخارج عن النظام اللغوي الذي يميز العربية. كما أن الألفاظ في عمومها غير مستعملة في المواضع التي تلائمها »[26]. وانطلاقا من هذا وذاك انتهى إلى أن كتاب الشعر « لم يمارس أي تأثير جدير بالتنويه فيما وصلنا من آثار نقدية» [27].

وبخصوص كتاب الخطابة فقد كان تأثيره في النقد العربي أبلغ من التأثير الذي أحدثه كتاب الشعر. والتأثير الذي يتحدث عنه **د. أمجد الطرابلسي** لا يعني أن نقاد القرنين الثالث والرابع للهجرة و ظفوا تصوراته ومفاهيمه في دراساتهم لأسلوب الشعر العربي، وإنما يقصد به أنه أثار حماسهم ودفعهم إلى البحث في القرآن الكريم وفي التراث الشعري القديم عن أمثلة للقضايا والتصورات التي تضمنها القسم الثالث من كتاب الخطابة الخاص بالعبارة « ليقولوا لأنصار الفكر اليوناني: إن ما تحملوه إلينا ليس بجديد، لأن أسلافنا كانوا يعرفون كل هذا »[28]. وتعد مقدمة كتاب البديع لابن المعتز (ت298هـ) خير مثال على ذلك[29].

أما بالنسبة إلى كتاب قدامة بن جعفر (ت337): نقد الشعر الذي يعده بعض الباحثين أنموذجا دالا على حسن التأثر بشعرية أرسطو فيدعو **د. أمجد الطرابلسي** إلى عدم المبالغة في تقدير ذلك التأثر[30]. ويرى أنه باستثناء بعض المسحات اليونانية القليلة التي تظهر في حديثه عن غرض المديح وعن المغالاة بوصفها إحدى أبرز خصائص الشعر على مذهب اليونانيين. فإن كل التصورات والآراء النقدية التي عبر عنها مستقاة من العلماء بالشعر قبله.

إن أهمية الموقف الذي اتخذه **د. أمجد الطرابلسي** من قضية الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين خلال الأربعينيات من القرن العشرين تكمن في أنه يكشف أن العمق القومي لشخصيته العلمية لم يدفعه إلى تعميم حكمه على كل مراحل التراث النقدي و البلاغي، بل إنه ظل ملتزما بالخطوات التحليلية والمقتضيات المنهجية التي تبناها في قراءته هذا التراث، فلم يتسرع في الحكم على الفترات التي تقع خارج مجال انشغالاته. ولذلك لم يجد أي حرج في الإقرار بوجود مدرسة بلاغية عربية في المغرب كان أصحابها أعمق فهما لمضمون كتابي أرسطو الشعر والخطابة « من النقاد و البلاغيين الذين عرفتهم القرون السابقة في مشرق الوطن العربي ومغربه»[31]. و ذلك بعد ظهور كتب: منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني (ت 684 هـ) والروض المريع في صناعة البديع لابن البناء المراكشي (ت 721 هـ) والمنزع البديع في تجنيس أساليب البديع لأبي محمد القاسم السجلماسي (ت حوالي 730 هـ).

وفي رأي " **أمجد الطرابلسي**" أن هؤلاء البلاغيين استطاعوا « بفضل ثقافتهم العربية العميقة والمتفتحة على التفكير الأرسطي، أن يفيدوا الدرس البلاغي العربي، بتلقيحه ببعض الأفكار الهيلينية تلقيحا ينم في الغالب عن فهم ووعي جديرين بالتقدير» [32].

وما يشير إليه **د. أمجد الطرابلسي** هنا يعني أن إثراء بلاغيي الغرب الإسلامي للدرس البلاغي بالأفكار الأرسطية لم يكن ليتم بالصورة الجديرة بالتقدير إلا بحصول أمرين رئيسين هما: عمق ثقافتهم العربية وانفتاحهم على الثقافات الأخرى واستيعابهم إياها. ومن الواضح أن هذا الموقف يكاد لا يختلف في شيء عن الموقف السابق الذي عبر عنه في معرض تحديده

الضوابط المنهجية التي يجب أن تحكم قراءة التراث البلاغي والنقدي عند العرب في ضوء التصورات والمناهج الحديثة.

ولئن كان هذا الأمر يدل على شيء، فإنما يدل على أن الرجل ظل وفيا لتصوراته، ثابتا على مواقفه العلمية الرصينة التي أسسها في ضوء وعيه العميق بالنسق النظري والمنهجي الذي تحكم بعملية التفكير النقدي والبلاغي عند العرب. ولعل هذا ما جعل أحكامه وتصوراته دقيقة وقوية إلى يومنا هذا .

الهوامش والمراجع

[1] - د.أمجد الطرابلسي: نقد الشعر عند العرب حتى القرن الخامس للهجرة، تر: إدريس بلمليح، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1993، تقديم المترجم، ص 5.

[2] - نفسه، ص 7.

[3] - نفسه، ص 8.

[4] - نفسه.

[5] - عباس أرحيلة: الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين إلى حدود القرن الثامن الهجري، منشورات كلية الآداب – الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 40، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1999، ص 98.

[6] - نفسه، ص 55.

[7] - د. أمجد الطرابلسي: نقد الشعر عند العرب، **مذكور**، ص 11.

[8] - نفسه.

[9] - نفسه، ص 12.

[10]- إدريس بلمليح: الرؤية البيانية عند الجاحظ، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1984، المقدمة، ص 9.

[11] - أبو عثمان الجاحظ: الحيوان، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط 19، 76/1.

[12] - إدريس بلمليح: الرؤية البيانية عند الجاحظ، **مذكور**، ص 9.

[13] - انظر عباس أرحيلة: البحوث الإعجازية والنقد الأدبي إلى نهاية القرن الهجري الرابع، دار اليمامة للنشر والإعلام، مراكش، المغرب، ط 1، 1977، تصدير د. أمجد الطرابلسي، ص 8.

[14] - د. أمجد الطرابلسي: نقد الشعر عند العرب، **مذكور**، ص 12.

[15] - نفسه، ص 11.

[16] - طه إبراهيم: تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري,ص11.

[17] - د. إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، دار الشروق، عمان، ط1، 1993، ص 646 .

[18] - د. أمجد الطرابلسي: نقد الشعر عند العرب، مذكور، ص 15.

[19] - نفسه، ص 21.

[20] - حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 3 ، 1986، ص 26.

[21] - بدأ الوعي بهذه الحاجة يتشكل عند العرب منذ النصف الثاني من القرن الهجري الثاني. ويعد كتاب ابن سلام الجمحي (ت 231 هـ): طبقات فحول الشعراء أبرز اللحظات الدالة على ذلك.

[22] - د. أمجد الطرابلسي: نقد الشعر عند العرب، **مذكور**، ص 21.

[23] - نفسه، ص 24-25.

[24] - نفسه، ص 63.

[25] - نفسه، ص 77-78.

[26] - نفسه، ص 78.

[27] - نفسه، ص 80.

[28] - نفسه، ص 82.

[29] - ابن المعتز: البديع، تح: كراتشوفكي، مطبوعات جيب التذكارية لندن، 1935، ص1 وص 58.

[30] - د. أمجد الطرابلسي: نقد الشعر عند العرب، **مذكور**، ص 87.

[31] - أبو القاسم السجلماسي: المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تح: علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، ط 1، 1980، تقديم، ص 12.

[32] - نفسه.

الهوامش والمراجع

1- طه إبراهيم: تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، دار الحكمة لبنان.

2- عباس أرحيلة: الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين إلى حدود القرن الثامن الهجري، منشورات كلية الآداب – الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 40، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1999.

3- عباس أرحيلة: البحوث الإعجازية والنقد الأدبي إلى نهاية القرن الهجري الرابع، دار اليمامة للنشر والإعلام، مراكش، المغرب، ط 1، 1977.

4- إدريس بلمليح: الرؤية البيانية عند الجاحظ، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1984.

5- أبو عثمان الجاحظ: الحيوان، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط 19.

6- د.أمجد الطرابلسي: نقد الشعر عند العرب حتى القرن الخامس للهجرة، تر: إدريس بلمليح، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1993.

7- أبو القاسم السجلماسي: المنزع في تجنيس أساليب البديع، تح: علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، ط 1، 1980،

8- حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 3 ، 1986.

9- ابن المعتز: البديع، تح: كراتشوفكي، مطبوعات جيب التذكارية لندن، 1935.
10- د. إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، دار الشروق، عمان، ط1، 1993، ص 646 .